المعارك الفاصلة في العصور القديمة

حرب التحرير ١٥٧١ق.م. :

حـــرب التحرير هو مفهوم اصطلح إطلاقـــه على الحرب التي خاضها أمراء إقليم طيبة (الأقصر الحالية) ضد الغزاة الهكسوس الذين استطاعوا احتلال مصر السفلى ومصر الوسطى حوالي عام ١٧٣٠ ق. م.

والهكسوس هم قبائل رعوية كانت تسكن في آسيا، ويبدو أنهم كانوا دائمي التنقل والترحال بحكم عملهم في الرعي، ولكن بعد أن توحدوا تطلعوا إلى غزو مصر والاســـتقرار بها لما تحويه مصر من ثروات وخيرات .

ولا تدل كلمة هكســـوس على جنســـية هؤلاء الغزاة والذين غزو مصر في أواخر عهد الأســـرة الثالثة عشـــر الفرعونية، وإنما هي صفـــة لحكامهم الذين أطلـــق عليهم المصريين اســـم حقاو خاســـوت بمعنى حكام الـــبراري وحوَّرها اليونان إلى هكســـوس،

وترجمهـــا مانيتـــون المؤرِّخ المصـــري القديم إلى ملـــوك الرعاة .

وقد عبر المصريون عن الهكسوس بمترادفات أخرى مثل العامو تلك الكلمة التي تعني البدو، ولازال أصل الهكسوس مشكلة حيرت الباحثين، ولكن أقرب الآراء للصحة هو أن للهكسوس صلة بشعوب وســـط آســـيا، التي خرجت منذ الألف الثاني قبل الميلاد من جراء ظروف طبيعية وبشـــرية، وتدفقت على الأناضول وأراضي الهلال الخصيـــب، واختلفت أشـــكال ونتائج هجرتهم مـــن مكان لأخر واختلفت المســـميات التي أطلقت عليهـــم وفقا للبلاد التي نزلوها، وإن كان المصطلـــح العام الذي أطلق على هـــؤلاء هو الأريين أو الهندوأوربيين، فإنهم عُرفوا في العراق باســـم الكاســـيين وفي آسيا الصغرى باسم الخاتســـيين وفي أعلى العراق باسم الحوريين . [٢]

على أي حال، لم تدن مصر كلها بالخضوع للهكسوس، وبقيت بعض المناطـــق في غرب الدلتا بالإضافة إلىمصـــر العليا (جنوب مصر) تحت حكم أمراء مصريين، ولكن لم يمتلك أي من الأمراء المصريين في ذلك الوقت القدرة على مقاومة الهكسوس والخلاص منهم، فالهكسوس أكثر عددا، ويتفوقون عسكريا على المصريين .

لم يندمج الهكسوس مع المصريين، رغم أن الشعب المصري عُرِفَ عنه اســـتقباله للهجرات المتكررة واندماجه مع الأعراق المختلفة، لكـــن الحاجز الـــذي كان بينهم وبين الهكســـوس كان كبيرا

٢ - (د. عودة عبد الواحد - مقتطفات من تاريخ الشرق الأدنى القديم - ص٤٨)

يمنـــع حدوث هذا الاندماج، رغم أن ملوك الهكســـوس طوال فترة اســـتعمارهم لمصر والتي تجاوزت المائة عام حاولـــوا مرارا وتكرارا الاندماج في المصريين وتلقبوا بألقابهم واتبعوا بعض عاداتهم، إلا أنهم فرضوا الضرائب الباهظة على المصريين واعتمدوا على القوة في حكمهم من خلال توزيع القلاع والفرق العسكرية على كل البر الذي يســـيطرون عليه، إلا أن المانع الحقيقي الذي منع المصريين من قبول اندماج الهكســـوس بينهم كان عدم احترام الهكســـوس للمقدســـات المصرية وتخريبهم لمعابد الآلهة المختلفة وتدميرهم لمعالم حضارة مصر القديمة التي ســـبقتهم .

على أي حال لم يكن للهكسوس مملكة واحدة موحدة في مصر بعد الغزو، حيث اعتاد الهكســـوس علـــى الإمارات المنفصلة، حتى اســـتطاع أحد أقوى أمرائهم توحيدهم تحت سلطته وتكوين دولة موحدة، وذكر مانيتون أن اسم هذا الأمير كان (سالتيس)، والذي ما أن فرغ من توحيدهم إلا وشرع في بناء عاصمة جديدة لهم في مصر

شـــرقي الدلتا عُرفت باســـم أفاريس أو أواريـــس وهي تقع في حدود محافظة الشـــرقية الحالية، وعمل الهكسوس على تحصين عاصمتهم الجديدة تحصينا قويا وزودوها بالحاميات العســـكرية اتقاءا لثـــورات المصريين ضدهم .

وفي الوقت الذي وصل فيه شعور السيطرة التامة للملوك الطُغاة الهكسوس في مصر، كان أبناء طيبة في صعيدها يستعدون لحرب

التحرير واستعادة مصر المسلوبة وردها إلى أبنائها، وقد حمل لواء الكفاح ضد الهكسوس ملك طيبة سقننرع وولداه كامس ثم أحمس على الترتيب .

يبدو أن ملك الهكسوس أحس باستعداد سقننرع للحرب، فحاول جره إلى الحرب قبل أن يكمل استعداداته، فادّعى أن أصوات أفراس النهر المُقدّسة عند المصريين في البحيرة الشرقية تفزعه في مدينته، وكان ذلك سببا لنشوب المعركة، تلك المعركة التي دخلها سقننرع دون استعداد كاف، ونجح الهكسوس في استدراجه إليها، ولم يصلنا الكثير عن تفاصيلها، ولكن أوضح وأجل مصدر يثبت هزيمة المصريين وقتل ملكهم سقننرع في هذه المعركة هو المومياء الخاصة بالملك سقننرع نفسه والموجودة بالمتحف المصري في ميدان التحرير بالقاهرة والتي نرى فيها بوضوح شديد رأس الملك سقننرع المكللة بخمسة جروح عميقة قاتلة .

بعد مقتل سقننرع تولى ابنه كامس أمور الحكم في طيبة، ومنذ توليه الحكم أخذ يستعد لاستكمال كفاح أبيه لتحرير مصر من الهكسوس، قائلاً عبارته الشهيرة « لسوف أقاتل العدو وأبقر بطنه، وأن غايتي أن أحرر مصر واستبيح دماء العامو » .

بالفعل استطاع كامس تطهير مصر الوسطى من الهكسوس، وحقق عدة انتصارات عليهم، لكنه تُوفِّي في ظروف غامضة قبل المعركة الفاصلة بينه وبين الهكسوس .

بوفـــاة كامس آلت أمـــور الحكم في طيبـــة إلى أخيه الأصغر أحمس، والذي استكمل كفاح أخيه ومن قبله أبيه ضد الهكسوس، ونجح في إعداد جيشـــه إعدادا فاق ما قام به أسلافه، وجهز جيشه بالعجلات الحربية والتي كانت تعطي للهكسوس تفوقا ميدانيا في كثير من المعارك .

استطاع أحمس الأول هزيمة الهكسوس ودخل عاصمتهم عنوة وأسر حاميتهم العسكرية بها، ويبدو أن الهكسوس قد أجبروا على الجلاء بشـــروط الملك أحمس، ولكنهم توقفوا عند حصن لهم في فلسطين يعرف باسم شاروهين أو شاروحين، فحاصرهم أحمس به مايقرب من ثلاث سنوات حتى جلوا عنه وعادوا من حيث أتوا .

بهـــذا الانتصار اســـتطاع الملك أحمس تخليـــص مصر من الهكســـوس تماما، وعودة السيادة على كل أرض مصر إلى أبنائها، وبدأت مرحلـــة جديدة من تاريخ مصر عُرفت باســـم عصر المجد الحربي .

إلا أنني أرى أن أهم ما اســـتفاده المصريون من محنة الهكسوس هـــو أن الاعتقاد بأن أمن مصر هو داخلهـــا فقط هو اعتقاد غير صائـــب، فلمصر مجالا حيويا لها من جميع الجهات يجب أن يكن مؤمنـــا تأمينا حقيقيا لضمان أمن مصـــر الداخلي، وهذا ما أقره ملـــوك عصر المجد الحربي في مصر القديمة من خلال معاركهم والتي سنتناولها بتفصيل بسيط .

معركة مجدو ١٤٧٩ ق.م. :

أصبح جليا بعد محنة الهكسوس أن أمن مصر مرتبط بوجود جيش قوي مدرب ومسلح بأحدث الوسائل، وقبل ذلك أن يكون جيشا محترفا لا جيش هاو يجتمع فقط عند الحاجة، كما اتضح أهمية المجال الحيوي لمصر خاصة في الناحية الشمالية الشرقية ورغم أنها تُعتبر أقصر حدود برية لمصر إلا أن أكثر موجات الغزو قد جاءت إلى مصر من تلك الناحية .

فَطِنَ ملوك الأسرة الثامنة عشر الفرعونية إلى هذه النقاط، فعملوا على تداركها، وكان الملك تحتمس الثالث أعظم من عَمِلَ على ذلك .

على التوازي كان هناك تحالفا في الشام بزعامة أمير قادش يعمل على تهديد الأمن القومي لمصر ووصل نفوذه حتى مدينة مجدو في شمال فلسطين، وسيطر على شاروهين معقل الهكسوس القديم الذي طردهم منه الملك أحمس الأول .

قرر الملك تحتمس الثالث مشاورة قادته في هذا الأمر، واستقروا جميعا على المبادرة بالهجوم ومفاجأة العدو، ويبدو أن الجيش المصري في هذا الوقت كان عدده يقترب من العشرة آلاف جندي .

زحـــف الملك تحتمس الثالث شمالا حتى وصل إلىبلدة تُدعى يحـــم، حيث ثلاثة طرق كلها تؤدي إلىمجـــدو، الأول (تاعاناقا) والثاني (جفتي) وهما ممهدان إلا أنهما طويلان، والثالث (عاورنا) وهو ضيق وعر، ولكنه قصير ويؤدي مباشرة إلى مجدو، وبعد أن شاور تحتمس قواده اختار على مسئوليته اجتياز الطريق الضيق وكان على رأس جنده، وبالفعل باغت جند الحلف عند مجدو، ودار قتال انتصر فيه الجيش المصري وحاصر مجدو ســـبعة أشهر استسلمت بعدها فعفى الفرعون عن أهلها وعن أمراء الشـــام، وحمل بعض أبناء الأمراء إلى مصر لتربيتهم فيها كرهائن . [٣]

وهنا يبـــدو للدارس والباحث كـــم أن الملك تحتمس الثالث يُعتبر أحد أعظم الملوك في مصر خاصة في مجالي الحرب والإدارة، فاســـتعداده لمجدو، ومباغتته للعدو بعد أن اســـتطاع أن يستنتج أهدافهم من الحلف، واختياره للطرق الوعرة الغير متوقعة للعدو تدل على عقليته العسكرية الفريدة .

كما أن جلبه لأبناء الأمراء الآسيويين إلى مصر، والعمل على تربيتهم تربية سليمة حتى يشبوا على الولاء والطاعة له وللدولة المصريـــة، ثم إعادتهم إلى بلادهم وتوليتهم المناصب المهمة والمؤثرة بها حتى يضمن ولاء هـــذه الأقاليم له، لأكبر دليل على عقليته الإدارية العظيمة .

---

٣ - (د. عودة عبد الواحد - المرجع السابق - ص٥٧)

كمـــا أن الانتصار في مجـــدو فتح للملـــك تحتمس الثالث الأبواب لتوطيد حكمه في هذه المناطق مما ساعد على تأمين الأمن القومي المصري، وحماية الجهة الشمالية الشرقية والتي تمثل أهم بوابة اســـتراتيجية لمصر، وســـاعده ذلك أيضا في توطيد وتثبيت حكمـــه لأول إمبراطورية ظهرت في التاريخ .

معركة قادش ١٢٧٤ ق.م. :

بعد وفاة الملك تحتمس الثالث، تعاقب على الحكم عدة ملوك حتـــى وصل الحكم إلىالملـــك أمنحتب الرابع المُلقـــب إخناتون، والذي لم يكن يهتم بأمور السياســـة وصب جُلَّ اهتمامه إلىدعوته الدينية الأتونية في ذلك الوقت، وبالطبع كان ذلك سببا كافيا لحدوث حالة من عدم الاستقرار الداخلي صحبها ضعف في النفوذ المصري على منطقة الشـــام والذي كان قد وطده الملك تحتمس الثالث من خـــلال معركة مجدو وغيرها، وانتهى الأمر إلى انهيار الإمبراطورية المصرية في ذلك الوقت .

بعد مقتل إخناتون، وسقوط الأسرة الثامنة عشر، عَمِلَ ملوك الأسرة التاســـعة عشر الفرعونية على استعادة هذا النفوذ، وكان من أبرز ما قاموا بها هو معركة قادش التي خاضها الملك رمسيس الثاني ضد الحيثيين .

فقد عاصر رمسيس الثاني ملكا على الحيثيين يدعى موتاللي، ولم يكن يقل طموحا عن رمسيس الثاني، وقد استطاع إقامة دولة قوية وصل نفوذها إلىشمال لبنان، واتخذ من مدينة قادش مركزا عسكريا له ولحلفائه .

خرج رمسيس الثاني إلىالشام في جيش من أربع فيالق (آمون - رع - بتاح - ست) وبالفعل وقع الصدام بينه وبين الحيثيين وحلفائهم عند قادش، ولمّا لم يكن النصر الحاسم حليف طرف معين، وبعد أن حس كلا منهما قوة الآخر مالوا إلى السلام، وتذكر المصادر المصرية أن الحيثيين هم الذين طلبوا السلام فقبله رمسيس بعد أن استشار رجال دولته، وهكذا أوقف رمسيس تقدم الحيثيين جنوبا، وأعاد السلام إلى أرض الشام . [٤]

اتفق الطرفان على عدم اعتداء أي منهما على حدود الآخر، وأن تحترم كل دولة كيان الدولة الأخرى، بل اتفقا على أن يقوم كل طرف منهما بنجدة الطرف الآخر بقوة عسكرية إذا وقع عليها اعتداءً عسكريا، ويبدو أن هذا النص في الاتفاق كان يُقصد به الخطر الآشوري عليهما والذي بدأ يظهر بوضوح من ناحية بلاد النهرين وتطلعات الآشوريين لتوسيع دولتهم وتكوين إمبراطورية كبيرة تمتد إلى السواحل الشرقية للبحر المتوسط .

٤ - (د. عودة عبد الواحد - المرجع السابق - ص٦٤)

اتفق الطرفان كذلك على ألا يأوي أي طرف منهما الفارين من بلد الطرف الآخر وأن يعيدهم إليه سالمين هم وزوجاتهم وأبنائهم .

على أي حال، أعادت انتصارات رمسيس الثاني في قادش وما بعدها النفوذ المصري إلىبلاد الشام، واستطاع من خلال المعاهدة التي وقعها مع ملك الحيثيين تأمين الحدود الشمالية الشرقية لمصر من جديد، ومن بعدها تفرغ الملك رمسيس الثاني إلى إقامة نهضة عمرانية كبيرة في مصر تتجلى في العدد الكبير من المسلات والمعابد والتماثيل المختلفة التي عثرنا عليها وتعود إلى عصره

شعوب البحر المتوسط ١١٧٨ق.م. :

تعرضت مصر في عصر الدولة الحديثة الفرعونية إلى خطر جديد، وهو خطر شعوب البحر المتوسط والتي تطلعت إلى غزو مصر واحتلالها، ويبدو أن تعاونهم على ذلك كان غير مدبرا، إلا أنه مثل خطرا كبيرا على مصر في هذه الفترة .

تمثل هذا الخطر في موجات متتالية من الغزو بدأت في عصر الملك مرنبتاح ابن الملك رمسيس الثاني والذي استطاع التصدي لجميعها، إلا أن أعنف موجة لهذه الهجمات كانت في عصر الملك رمسيس الثالث والذي استطاع أن يتصدى لهم ويردهم على أعقابهم .

وقد ارتبط اسم شـــعوب البحر المتوســـط بالجزر المتناثرة به والأراضي الممتدة على سواحله، فمنهم الشرادنة المرتبطين بجزيرة ســـردينيا، واللوكانيون بليكيا في آسيا الصغرى، والأخيواشا ببلاد اليونان، والشكرس بجزيرة صقلية، والبلستي الذين سكنوا مرتفعات سوريا الجنوبية وارتبط اسم فلسطين بها .

أغارت تلك الشـــعوب على مصر من جديـــد في عصر الملك رمسيس الثالث، وفي هذه المرة كانت الغارات برية بحرية في نفس الوقت، فقد كانت الهجمات البرية من ناحية الشـــمال الشرقي والتي وصلت إلى قرب مدينة رفح الحالية واستطاع الملك رمسيس الثالث التصدي لهـــا وهزيمتها واعادتها إلى من حيث أتت .

أما الهجمـــات البحرية فقد جاءت من الشـــمال حيث البحر المتوســـط، ووصلت إلىالقرب من المصـــب الغربي لنهر النيل، وهنا كانت المواجهة البحرية الأولى الكبيرة في تاريخ الأسطول الحربي المصري والذي أبلى فيها بلاءا حســـنا وتمكن من تحقيق الانتصار البحري الكبـــير الأول في تاريخ البحرية المصرية .

في العام الحادي عشـــر من عهد رمسيس الثالث عاودت شعوب البحر المتوسط الهجوم بزعامة شيخ يدعى كابور لكن لاقوا هزيمة جديدة، ومنذئذ بدأ هؤلاء يتسللون سلميا إلى مصر وتسامح معهم الحكام واستخدموهم لحماية حصون مصر الغربية . [٥]

٥ - (د. عودة عبد الواحد - المرجع السابق - ص٦٩)

كانت تلك الانتصارات التي حققها الملك رمســـيس الثالث ضد شعوب البحر المتوسط سببا كافيا لنا حتى نعتبره آخر ملوك الفراعنة العظام، كما اعتبره كثير من المؤرِّخين المؤسس الحقيقي للأسرة العشـــرين الفرعونية، فيرى كثير من الباحثين أن خطر شعوب البحر المتوسط الذي هدد مصر في عصره لم يكن يقل بأي حال من الأحوال عن خطر الهكســـوس الذي تعرضت له مصر في أعقاب انهيار الدولة الوسطى الفرعونية، ولولا التصدي البطولي للملك رمسيس الثالث لهم وانتصاره عليهم لدخلت مصر في فترة جديدة من الاستعمار الذي يستنزف موارد البلاد ويستعبد أهلها .

طرد الأشوريين ٦٢٠ق.م. :

الأشـــوريون هم أحد أهم الحضارات التي قامت في بلاد العراق القديم، واستطاعت بسط نفوذها على مناطق كثيرة حولها حتى وصل النفوذ الآشـــوري إلى شـــرق حوض البحر المتوسط في بلاد الشـــام، ولما كانت بلاد الشـــام هي أهم مجال حيوي لمصر، وتمثل بُعدا استراتيجيا مُهماً لها، لم يكن بإمكان مصر أن تظل بعيدة عن معترك الأحداث ببلاد الشام .

ما لبث الملك ســـرجون الثاني الأشوري أن تُوفِّى حتى اندلعت الثورة في بلاد الشام ضد الحكم الآشوري، خاصة الممالك العبرانية مثل مملكة يهوذا والتي كانت تلقى دعما كبيرا من المصريين في

ذلك الوقت، حيث هدف المصريون من مساعدة مملكة يهوذا أن تكون درعا واقيا لهم من التوسع الآشوري .

فطن الآشوريين إلى الدعم المصري لتلك الممالك في بلاد الشام فأرادوا القضاء على مصر لتهدأ الأحوال في بلاد الشام، بالإضافة إلى تطلع الآشوريين للاستيلاء على مصر وتعدد محاولاتهم لتحقيق أهدافهم الاقتصادية والعسكرية، فاستجمع الملك الآشوري (آشور حادون) قوته كاملة وشرع في مهاجمة مصر منذ عام ٦٧٤ق.م. وبالفعل وصل إلى رفح، وشق طريقه إلى منف وما إن وصل إليها حتى دمرها تماما، وسيطر على كامل أقاليم الدلتا، ثم قام بتوزيع الحكم على حكام محليين وجعلهم عمالا وولاة له .

تعددت ثورات المصريين ضد الحكم الآشوري، والذي عُرِفَ عنه استخدامه للقوة وسوء معاملة البلاد التي كانوا يسيطرون عليها، وفي كل مرة كان الآشوريون يرسلون جيوشهم لإخماد الثورات في مصر وإخضاع أهلها .

من أهم الثورات التي قام بها المصريون ضد الحكم الآشوري تلك الثورة التي قادها وريث عرش الأسرة الخامسة والعشرين الفرعونية ويُدعى تانوت آمون الذي صعد حتى منف واستولى عليها وأدّب الأمراء الذين خضعوا لآشور . [٦]

٦ - (د. عودة عبد الواحد - المرجع السابق - ص٧٩)

لم يعد أمام آشور بانيبال الحاكم الآشوري حينئذ سوى العودة إلى مصر حاقدا على تانوت آمون وثورته، واستطاع الآشوريون ملاحقة تانوت آمون حتى دخلت القوات الآشورية طيبة، ورغم مقاومة أهلها إلا أنهم دمروها بشكل كامل ونهبوا كنوزها ونقلوها إلى أشور، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يقتحم جيش أجنبي طيبة ويدمرها .

مرت السنوات وما لبث أن ظهر أحد الأمراء المصريين وهو بسماتيك الأول، والذي كان أميرا على مدينة سايس وقد عمل على استغلال الظروف للاستقلال وطرد الآشوريين من مصر وقد خدمته الظروف خدمات جليلة، حيث دخلت آشور في صراع طويل مع عيلام وبابل بالإضافة إلى ثورات بلاد الشام، بل واشتبك الآشوريين كذلك مع ليديا في آسيا الصغرى .

استغل بسماتيك الأول ما وقعت فيه آشور، وقام بتقوية علاقاته بحلفائه داخل مصر، كما استعان بجنود مرتزقة من اليونان، بل وتحالف مع جيجس ملك ليديا على أن يساعد أحدهما الآخر وقت الضرورة .

بالفعل استطاع بسماتيك الأول طرد الآشوريين من مصر بل واستولى على مدينة أشدود في فلسطين لتكون خط الدفاع الأول عن دولته، وأعاد الوحدة والأمان إلى البلاد من جديد، لذا اعتبره المؤرِّخون هو مؤسس الأسرة السادسة والعشرين الفرعونية، كما اعتبر عصره هو عصر النهضة في الأسرات الفرعونية العشرة الأخيرة .

معركة رفح ٢١٧ق.م. :

انتهى العصر الفرعوني بعد الغزو الفارسي لمصر عام ٥٢٥ق.م، وظلت مصر تحت حكم الفرس دون مقاومة عسكرية تذكر اللهم إلا بعض الثورات من الشعب المصري، حتى استطاع الإسكندر الأكبر المقدوني غزو مصر وإخراج الفرس منها، وقد عاون المصريون الإسكندر في حروبه ضد الفرس لإجلائهم عن مصر لعدة أسباب أهمها رغبتهم في الخلاص من الحكم الفارسي الغاصب بالاضافة إلى قوة العلاقات بين المصريين واليونان، حيث رأى المصريون أن يكونوا تحت الحكم اليوناني ممثلا في إمبراطورية الإسكندر أفضل لهم من الاستمرار تحت الحكم الفارسي .

بعد أن أتم الإسكندر استيلائه على مصر، خرج لاستكمال غزواته للاستيلاء على العالم القديم، إلى أنه تُوفِّي في ظروف غامضة ببلاد الهند، ولم يكن للإسكندر وريثا لإمبراطوريته، فعقد كبار قادة جيشه مؤتمرا في بابل العراقية واتفقوا فيما بينهم على تقسيم إمبراطورية الإسكندر بينهم .

بالفعل عهد إلى بطلميوس بمصر، وإلى لاوميدون بسوريا، وإلى لوسيماخوس بتراقيا، وإلى بايثون بميديا الكبرى، وإلى أرخون ببابل، وإلى أنتيجونوس بالجزء الأكبر من آسيا الصغرى، وإلى

يومينيس بكبادوكيا وبافلاجونيا، وبلاد اليونان إلى أنتيباتروس، وبأقاليم أخرى إلى قواد آخرين . [٧]

ما لبث كل قائد أن استلم إدارة ولايته، حتى بدأت المشكلات بينهم، إذ تطلع كل منهم إلى الاستيلاء على ولاية الآخر، فدارت بينهم المعارك، وعُقدت بينهم التحالفات، وكان من أهمها الحروب السورية والتي كان البطالمة في مصر والسلوقيين في سوريا هما طرفيها .

رغم أن بطلميوس الأول كان سببا في مساعدة سلوقس في السيطرة على سوريا، إلا أن هذا لم يشفع لوقف الحروب التي دارت بين البطالمة والسلوقيين على الأقل في زمن خلفائهما، وتعددت الحروب والمعارك بين الطرفين، إلا أن أشهرها على الإطلاق كان معركة رفح .

وأرى أن الأهمية التاريخية لمعركة رفح هي أنها المعركة الأولى في تاريخ مصر البطلمية والذي استمر قرابة الثلاثة قرون، التي يعتمد فيها على جنود مصريين والذين أبلوا فيها بلاءا حسنا منقطع النظير .

كان طرفي المعركة هما بطلميوس الرابع الملك البطلمي، ضد أنطيوخوس القادم من الناحية الشمالية الشرقية، وبالفعل التقى الجيشان عند رفح، ويبدو أن جيش أنطيوخوس كان أكبر من الجيش البطلمي، وكان يضم الأفيال

٧ - (د. عودة عبد الواحد - تاريخ مصر في العصر البطلمي - ص١٣)

فكان النصر في البداية من نصيب أنطيوخوس، الذي ظل يطارد فرسان البطالمة منتشيا بنصره، إلا أن الأمور اختلفت فجأة عندما رأى أمامه عشـــرون ألفا من الجنود المشـــاة المصريين الذين وثبوا على السلوقيين وألحقوا بهم هزيمة ساحقة .

كانت هذه هي المـــرة الأولى في تاريخ العصر اليوناني في مصر الذي يســـمح فيها للمصريين بنيل شرف الدفاع عن وطنهم، ورغم أن النصر قد نُسب إلى ملكهم البطلمي، والذي غنم غنائم كثيرة من هذه المعركة، فلا ريب أنه كان نصرا مؤزرا للمصريين جعلهم يتطلعون إلى المشاركة في حكم بلادهم .

أكتيوم البحرية ٣١ق.م. :

آلت أمور الحكم في أواخر العصر البطلمي إلى الملكة كليو باترا الســـابعة والتي لم تكن تتدخر أي جهد للوصول إلى هذا المنصب، حتى أنها اشـــتركت في التخلص من أخيها، وتطلعت إلى أن تكون ملكة على روما ســـيدة العالم في حينها، فعملت على بذل كل ما تملك لتنال رضا يوليوس قيصر حاكم الرومان .

قُتل قيصـــر في روما، وتوالت الأحداث حتى انقســـمت الدولة الرومانية إلى قسمين، قسم شـــرقي تحت حكم أنطونيوس، وقسم غربي تحت حكم أوكتافيوس (أوكتافيان - أغســـطس)، ولم تكن كليـــو باترا قد تخلت بعد عن حلمها الأول بأن تصبح ملكة على

عرش روما، فسعت إلى التحالف مع أنطونيوس وقد نجحت في تحقيق ذلك .

أصبح جليا أن تحالف أنطونيوس مع كليوباترا يعني عدم إمكانية تواجد قوتان كبيرتان في العالم الروماني، قوة أنطونيوس وقوة أوكتافيوس، لذا عمل كل طرف منهما على التخلص من خصمه بعد أن كانا متحالفان، ولكن قبل أن تظهر كليوباترا بينهما .

استغل أوكتافيوس الإجراءات التي قام بها أنطونيوس في الأراضي الشرقية لصالح كليوباترا، وأجج الأمور إعلان أنطونيوس طلاقه من أوكتافيا أخت أوكتافيوس، وأشعل نار الغضب الروماني ضد أنطونيوس، وباتت المعركة وشيكة بين الطرفين .

في أواخر عام ٣٣ق.م. استقر أنطونيوس وكليوباترا في أفسوس لتجميع قواتهما استعدادا للحرب القادمة، وكان الرومان في جيش أنطونيوس رافضين تماما وجود الملكة كليوباترا بينهم والدفاع عنها، ولكن مع إلحاح أنطونيوس عليهم بحجة أنها كانت تمول الجيش والأسطول من موارد مصر فأنها بقيت بينهم .

لم تلبث سنة ٣٢ق.م. أن تدخل إلا وكان أنطونيوس قد نجح في جمع جيش قوامه حوالي تسعون ألفا مدعوما بأسطول من خمسمائة سفينة، وتحرك بقواته غربا صوب بلاد اليونان .

في ربيع عام ٣١ق.م. عبر أوكتافيوس مع جيش يقارب عدده عدد جيش أنطونيوس مدعوما بأربعمائة سفينة إلى أبيروس، وأصبح في

مواجهة مع جيش خصمه، وبالفعل وقعت المعركة على سواحل بلاد اليونان عند خليج أكتيوم، وتم حصار أسطول أنطونيوس عند مضيق أكتيوم، وفشل تماما أنطونيوس في جر غريمه إلى حرب برية، واستطاع أوكتافيوس منع الإمدادات عن جيش أنطونيوس والذي بدأ يعاني نقص الإمدادات وتفشي الوباء والمرض .

يبدو أن الأمور قد تعقدت في معسكر أنطونيوس، وتجدّدت المطالب بمغادرة كليوباترا معسكر الجيش، وبدأ الكثير من ضباط وجنود أنطونيوس يتخلون عنه ويوالون قوات أوكتافيوس، فلم يجد أنطونيوس أمامه إلا محاولة اختراق الحصار بما تبقى لديه من سفن حيث كانت معظم سفنه قد وقعت في الأسر .

استطاع أنطونيوس الوصول إلى الإسكندرية بأعجوبة وصار يجمع كل ما أمكنه للدفاع من جديد، وفي نفس الوقت كان أوكتافيوس يتقدم في ثبات إلى السواحل المصرية منتشيا بالنصر حتى وصل إلى سواحل الإسكندرية في صيف عام ٣٠ق.م.، وكانت معظم قوات أنطونيوس قد استسلمت إليه .

انتاب أنطونيوس اليأس، وأدرك أنه مهزوم لامحالة، فقرر الانتحار وتبعته كليوباترا السابعة، معلنين بذلك هزيمتهم تماما، وانتهاء عصر البطالمة، وتحول مصر إلى ولاية رومانية تحت الحكم المباشر لأوكتافيوس .